

الأنا والآخر عند المتصوفة - ابن العربي أنموذجا
(560-638هـ / 1165-1240م)

The self and the other among the Sufis - Ibn al-Arabi as a model (560-638 AH / 1165-1240 AD)

د. خضر عيد مفلح السرحان

قسم التاريخ / كلية الآداب، جامعة آل البيت. الأردن

khsrhan@yahoo.com

Doi: 10.53283/2157-007-001-005

تاريخ الاستلام: 2024/11/08 تاريخ القبول: 2024/11/10 تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص: تحوي كتب الأدب العديد من الأخبار والعلوم ان اجيد استعمالها وتم البحث به بشكل دقيق ورصين بعيدا عن الأهواء والأمزجة، من خلال الأدب نثرا او شعرا ممكن أن نتحسس أفكار ومشاعر الكتاب ومواقفه من قضايا مصيرية هامة، كحال دراستنا هذه التي تحاول الوقوف وتلمس موقف أحد أئمة التصوف المشهورين وهو الشيخ الاكبر ابن العربي من الآخر بغض النظر عن العرق او اللون أو الدين من خلال ما دونه وما طبقه في حياته حيث تعدت نظرة ابن العربي الى الآخر الانسان بل الى كافة مخلوقات الله عزو جل منطلقا بنظرته وفكره من دعوة الاسلام السمحة في تكريم الانسان وكافة مخلوقات الله عزو جل.

كلمات مفتاحية: ابن العربي، الآخر، المتصوفة، التعصب، الاندلس، دمشق.

Abstract: Literature books contain many news and sciences, if I am good at using them and they are researched accurately and soberly, away from whims and moods. Through literature, in prose or poetry, we can sense the thoughts and feelings of the book and its positions on important crucial issues.

This is the case with our study, which attempts to stand and touch the position of one of the famous imams of Sufism, namely the great Sheikh Ibn al-Arabi, regarding the other, regardless of race, color, or religion, through what he wrote and what he applied in his life, as Ibn al-Arabi's view of the other went beyond the human being, but rather to all the creatures of God Almighty. Based on his view and thought, Islam's tolerant call to honor man and all of God Almighty's creatures.

Keywords: Ibn al-Arabi, the other, Sufis, fanaticism, Andalusia, Damascus.

1. مقدمة:

مشكلة البحث:

اعتادت البشرية على مر العصور على التعصب للدين والقبيلة، وكان التعصب للقبيلة من أهم ما يميز عصور ما قبل الاسلام، وقد صور الأدب الجاهلي أبشع صور التشدد للقبيلة. ولما أكرم الله سبحانه وتعالى البشرية بالإسلام، حرم هذه العصبية بكافة أشكالها، ففي الحديث الشريف ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية وحلت الرابطة الدينية مكان كل رابطة، فبات المعيار آية كريمة من القرآن الكريم "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" ¹.

وقد ضربت قصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أروع القصص في احترام الآخر، وتفضيله على النفس، حتى أن الرجل من الأنصار كان يعطي أخاه من المهاجرين نصف ماله، ويشاطره بيته.

إلا أن التعصب للقبيلة، ظاهرة تموج بين الأمم، مثلها مثل أي ظاهرة، فهناك مؤلفات عديدة عن العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، وهي للأسف موجودة في وقتنا الحاضر.

المقدمة:

دراسة الآخر تعتبر إحدى أهم الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وتدرج تحت بند الدراسات الأدبية المقارنة، وقد بدأ ظهور هذا النوع من الأدب عند الفرنسيين، وقد أطلق على هذه الدراسات في المبحث الجديد عدة مصطلحات مثل: دراسات الصورة (Image Studies)، أعلم الصور «Imagologie»، أو «الصورولوجيا» كما يتردد في اصطلاح المقارنين، أو الصوراتية في التداولات التطبيقية المقارنة ².

وعرفت الصورولوجيا بأنها " دراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها، المنبثقة من تحت وطأة غياب أو المنسرية من مسكوت عنه، ويهتم برصد رؤى وانطباعات المجتمعات، الرابضة في مخيال الوعي الجمعي، التي تتم على انساق معرفية

عامة، فالغوص في أعماق الذاكرة يحيلنا على تكتلات المفاهيم الصادرة عن مسلمات فكرية عميقة غير معلنة بالضرورة يمكنها ان تشكل إيماءة تجري او تتساق مع رؤية معينة وادراك محدد⁽³²⁾، وهناك من يرى بأن هناك تلازم بين مفهوم الأنا وصورة الآخر، فالانا تتظر الى الآخر وصورة الآخر تعرض صورة من هذه الأنا الناظرة اليه ، وعليه فان استخدام أي منهما يستدعي تلقائيا حدوث الآخر، أي أن الانسان قد يقيم ذاته (الانا) من خلال نظريته وطريقة تعامله مع الآخر⁽⁴¹⁾.

وقد اشير الى أن نشأة هذه الدراسات مرتبطة بالدرس الأدبي المقارن في المدرسة الفرنسية وخاصة عند روادها المؤسسين والمنظرين الأوائل ومنهم جان ماري كاريه Jean - Marie Carré (1887-1958) وتلميذه فرانسوا غويار (Marius-François Guyard) (1921-2011)⁽⁵²⁾

إن دراسة الآخر ليست بمنأى عن العلوم الأخرى، خاصة الإنسانية التي تعنى بالتاريخ، والانثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، ويمكن تطبيقها بعدة أشكال، منها :
دراسة صورة شعب ما في أدبه مثال ذلك: صورة الألمان في الأدب الألماني، دراسة صورة شعب ما في أدب شعب آخر مثل كتاب صورة الفرنسيين في الأدب المغربي⁽⁶³⁾ او دراسة صورة شعب ما لدى أديب بعينه مثل صورة الغربي في أدب نجيب محفوظ، او دراسة صورة شخصية ما في أدب شعب آخر، مثال ذلك: صورة صلاح الدين الأيوبي في الأدب الغربي، وهكذا وهذه الورقة العلمية تسعى لدراسة صورة الآخر، بغض النظر عن دينه، أو عرقه، أو لونه، عند الشيخ محي الدين بن عربي، ولو ألقينا النظر على هذا النوع من الدراسات نجد ان صورة الآخر قد ظهرت كمجال مهم للدراسة عند الكثير من الباحثين⁽⁷⁴⁾، وتعددت الدراسات، والبحوث في هذا المجال، حتى أنه البعض اولى لها اهتمام خاص، وعرف بدراسته لهذا المجال .وشغلت دراسة الآخر والاطلاع عليه من خلال ما كتب عنه حيز واسع في الدراسات الانسانية وبرزت بشكل واضح بعد ان كتب في هذا المجال ادورد

سعيد كتابه المعروف الاستشراق حيث وضح من خلال هذا الكتاب ان المجتمع الغربي كون صورة عن المشرق واهله من خلال ما كتبه المستشرقون عن هذا المشرق وقد كشف ادورد سعيد أن صورة الشرقي المتعصب والميال للهو والطرب وبلاد المشرق انها بلاد السحر والجواري والرقص وغيره من تلك الوجوه مرده الى ما كتبه المستشرقون عن المنطقة وان هذه الكتابات لا تحظى بالمصادقية العلمية بل تخضع الى مزاج المؤلف وشهواته التي قد يكون مارسها او حقق شيء منها فكتب عن ذلك بإسهاب.⁸¹⁾

وهناك من كتب عن الآخر واستنبت ما كتبه وحلل ذلك من مجموعة من الكتب الأدبية، تم اختيارها بعناية، لأنها تحمل بين طيات صفحاتها صورا من التسامح تارة ومن العصبية تارة أخرى بعفوية الحياة اليومية للأفراد والمجتمع، كما أن الكتب المختارة تتضمن صورا من الاختلافات الدينية، مسلم، مسيحي، يهودي، وغيره، والعرقية، عربي، يوناني، فرسي، والاجتماعية الحر والعبد، المالك والمملوك، كما تتباين في ازمقتها، وظروف واحوال الناس، في لحظات القوة مثل كتب: الجاحظ، وابن قتيبة، وأبو حيان التوحيدي، ولحظات الضعف زمن الصليبيين كتاب أسامة بن منقذ، مما يتيح المجال لمزيد من الاستنتاجات، والتحليلات.⁹²⁾

وأضافت، "إن الإرهاب الفكري الذي نمارسه في حق الآخر المختلف، هو إرهاب في حق ذواتنا أيضاً، إذ نغلق نوافذ الحياة المتجددة، ونرضى أن نعيش في ظلمة الجهل رافضين ثقافة التسامح التي أسست ازدهار حضارة أجدادنا."¹⁰¹⁾

ومن بين من كتب عن الآخر نجد من بين موقف الدين الاسلامي ونظرته من الآخر بشكل صحيح، واستدل بالآيات القرآنية التي بينت عظمت الاسلام من خلال انصافه للمختلف وعدم التعميم واطلاق أحكام قاطعة بخصوص الآخر¹¹²⁾

الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي :

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد، الطائي الحاتمي المرسي، المعروف بمحيي الدين ابن العربي المكنى بأبي بكر، والملقب بالشيخ الأكبر .

ولد سنة 560 هـ/1165م بمرسية في الأندلس، وانتقل إلى إشبيلية. وتثقل في البلاد فزار المغرب وكتب الإنشاء لبعض الأمراء فيها، وزار مصر، كما زار الحجاز وتمر ببغداد وسكن الروم مدة حتى استقر أخيراً في دمشق. كان ذكياً كثير العلم، زاهداً، متفرداً متعبداً متوحداً، وقد عمل الخلوات، وله مؤلفات كثيرة، وظل يحرر ويؤلف دون ملل إلى أن وافته المنية بدمشق سنة 638 هـ/ 1240م.¹²³

ابن العربي والآخر :

لقد صاغ ابن العربي في احترام الإنسان للإنسان، واحترام الديانات الأخرى مقولات سبقت بقرون مفاهيم مركزية في الحداثة الغربية، حيث كتب حنفي: " لم يتحدث ابن عربي عن التسامح بوصفه هدفاً في التعامل والنظرة إلى الآخر المختلف ديناً أو عرقاً أو جنساً أو لونا إلخ، بل تجاوز بوضوح فكرة التسامح إلى قيمة التوقير، الذي يفوق التسامح بمراحل كبيرة؛ حيث صاغ مقولته قصيرة الألفاظ، غزيرة المعاني "لن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقر جميع الخلائق "هذا التفريق بين التسامح والتوقير لم تصل إليه الحداثة الغربية إلى في أطوارها الأخيرة¹³¹ "

وقد صنف ابن العربي الوجود إلى ثلاثة عوالم، عالم الحق وعالم الخلق وعالم الصور والخيال .

وقد تناول البعض في مقالاتهم عن إحدى رسائل ابن العربي إلى أخيه المهدي مضمونها الرفق بخلق الله وفيها يحكي ابن العربي عن رجال الطريق وحالهم مع الناس والحيوانات حيث الترفق بكل شيء فلا عنف ولا غلب في التعامل.¹⁴²

بالرغم من كل ما يقال حول الشيخ الأكبر، وبالرغم من وجود معارضين له، فإن هذه الشخصية تعد من أهم الشخصيات الصوفية، والأكثر تأثيراً، سواء من حيث الإمامة، أو المنزلة الأدبية كشاعر متصوف، متميزاً في موقفه الانساني ونظرته للأديان .

فقد كانت وحدة الأديان فكرة دان بها عدد كبير من الصوفية ومن بينهم ابن عربي، واعتمد بعضهم على قول ابن العربي:

عقد الخلائق في الإله عقائدا ... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه (151)

فيما ذهبوا اليه، بل هناك من رأى أن المتصوفة نظروا إلى ان اختلاف الأديان من حيث الظاهر ليس الا، أما من حيث الحقيقة والجوهر فلا تباين ولا اختلاف. فكل ما هنالك من علل ونحل ليس في حقيقته الا مجرد وسائل يتوسل بها إلى غاية واحدة هي عبادة إله واحد وهو خط مشترك بينها جميعاً. وفق مقولة لابن العربي (162) "ان العارف المكمل هو من رأى كل معبود مجلي للحق يعبد فيه، وذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص بحجر أو شجرة أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك (173) "، كما ان الأديان السابقة عن الإسلام كما يرى ابن العربي لم تكن إلا مسارا طويلا للوصول إلى الدين الإسلامي وأنه خاتمة هذه الديانات وجوهر الجواهر وقدم ابن العربي تفسير لفكر التسامح الذي كان يدعو لهم خلال قوله أن جميع الأديان تؤكد على حقيقة واحدة هي التوحيد ومكارم الأخلاق وبالتالي لماذا نكره أي دين أو نحقر أتباعه، ولماذا لا يتسع قلبنا لكل البشر الطيبين حتى لو اختلفوا عنا في الطقوس والشعائر والعقائد (181)

شعره، ومقولاته في الآخر:

ولا بد في هذه العجالة من استعراض بعض من اقوال وشعر ابن العربي في هذا الخصوص ولهو في مجال قبول الاخر مقولات وأبيات في تصوفه، ورؤيته للخالق، ورؤيته للمخلوق، ولكي يكون المتابع مطلعاً على بعض من مقولاته وأبياته الشعرية في المخلوق، والتي هي بمثابة حكم، يمكن ان يستفاد منها في التعامل مع الاخر حاضرا ومستقبلا .

تاليا بعض من هذه الاقوال وهي مقتبسة حرفيا مما دونه :

• "لا تحتقر أحدا أو شيئا فالله حين خلقه لم يحتقره ."

• "لن تبلغ من الدين شيئا حتى توقر جميع الخلائق ."

- "لولا سريان الحق في الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود، كما أنه لولا تلك الحقائق المعقولة الكلية ما ظهر حكم في الموجودات العقلية ."
- وتاليا بعض من الابيات التي تتجلى فيها صورة رائعة من صور الانسانية وقبول الآخر بغض النظر عن العرق واللون والمعتقد .

لقد كنت فيما مضى أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني الى دينه دان
وقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت نيران ومعبد طائف وألواح تورا ومصحف قران
ادين بدين الحب أني توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني
وكما تعرفنا في مقدمة هذا البحث فإن القارئ يمكنه الاستدلال على صورة الآخر
من خلال الأدب، ومن السهل استنباط رأي الشيخ ابن العربي بالآخر، فهو يحترم كل من
وما خلقه الله، حتى لو كان شيئا متجاوزا بذلك حد الإنسان إلى النبات والحيوان .
وهو يوصي بتوقير جميع الخلاق، ومعروف أن التوقير هو أعلى مراتب التسامح، والراقي
في التعامل .

وقلبه يقبل كل صورة من صور الدين، سواء كان الآخر عابدا للنار، أم مسيحيا، أم
يهوديا، أم مسلما، وقبول القلب من أسمى المشاعر تجاه الآخر، إذ إن العقل يفكر ويتدبر،
وقد يقبل العقل بعد صراعات بنات الأفكار، ومد الليل، وجزر النهار، أما القلب، فإنه إذا
قبل، سكنت الروح، واستتار العقل.

ما هي الظروف التي تهيأت لابن العربي ليتولد إليه هذا الفكر؟ هل هي نشأته
ضمن جو ديني؟ فوالده علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، جده أحد قضاة الأندلس
وعلمائها .

أم ترحاله بين البلاد شرقها وغربها؟ فأصبح منفتحاً على الثقافات، والديانات المختلفة، أم كونه متصوفاً، محباً للخالق، فالحب في قاموس الصوفيين هو التصوف، والتصوف هو الحب؟ وحب الخلائق من حب الخالق؟ .

الإنسانية على مر العصور، تمر بها ظلمات، والإنسان يتعرض للظلم وعدم الإنصاف، لأسباب عديدة، قد يكون لا يد له فيها، فالعبودية، مبنية على أساس اللون، ومن ذا الذي يقدر في ظلمات رحم الأم، على تلوين بشرة الإنسان؟ من له الحول والقوة؟ سوى الخالق المصور .

وكلما ازدادت عتمة الليل، وتكاثفت الظلمات، كانت الإنسانية بأمس الحاجة إلى من يذكرها بخالقها، ويرجعها إلى الفطرة، فيكون كرم الله سبحانه وتعالى، بإرسال رسول، أو بعثة نبي، أو من يجدد لها دينها .

وبالرغم من الجدل حول الشيخ الأكبر، كونه أحد أئمة التصوف، الجدل الذي قد يصل إلى حد المخالفة، والتكفير، حتى أنه تم تأليف كتاب بعنوان "تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي" وهو كتاب تحليلي عن عقيدة وفكر ابن عربي، ألفه الإمام برهان الدين البقاعي؛ بالرغم من هذا فإن ابن العربي ينبذ العصبية، ويدعو إلى احترام خلق الله بغض النظر عن ماهيته، عرقه، دينه.

النتائج :

1. إن التنوع والاختلاف والتباين سنة من سنن الله عز وجل .

2. خلق الله الناس شعوب وقبائل، أجناس وألوان، لا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى. وقد كرم الله الإنسان كبني آدم بشكل عام قال تعالى : {ولقد كرمنا بني آدم} ¹⁹¹ فالله كرم بني آدم، لم يقل جل جلاله بني آدم المسلم، أو بني آدم الأقرب نسباً لأحد رسله .

3. أن احترام الآخر وتقديره، يعكس احترامنا وتقديرنا لأنفسنا، وبالبحث عن الآخر، نكون نبحت عن ذاتنا .

4. ان التكريم للإنسان جاء من الخالق وشرف التكريم هذا من خالق آدم وبنيه، وخالق ذريتهم إلى يوم الدين، وخالق السماوات والأرض التي خلقها أكبر من خلق الإنسان، فإذا كان الخالق يكرم، فمن الذي يتعدى ويحقر؟

5. يرى ابن العربي ان الآخر خلقا من خلق الله، يجب احترامه كما أمر الله، وهنا تبرز شخصيته الإيجابية ويدعو إلى مكارم الأخلاق .

يقول ابن العربي في مقطع من إحدى قصائده، يعلو قدر الصدق، وتذم الكذب :
إن اللسان رسول القلب للبشر بما قد أودعه الرحمن من درر
فيرتدي الصدق أحيانا على حذر ويرتدي المين أحيانا على خطر
كلاهما علم في رأسه لهب لا يعقل الحكم فيه غير معتبر
وانظر إلى صادق طابت موارده وكاذب رائح غاد إلى سفر
مع اتحادهما والكيف مجهلة من سائل كيف حكم الحق في البشر²⁰¹

لقد حظي الآخر بمكانة خاصة عند الشيخ الأكبر ابن العربي وقدمه ووضعه في منزلة انسانية كريمة يستحقها كما كرم الله الانسان وربما يعطي هذا مؤشر الى الدارسين والمهتمين في هذا المجال لمراجعة مواقفهم وابرار الدور المتسامح للمفكرين المسلمين ابن العربي انموذج .

المصادر والمراجع :

1. القرآن الكريم

2. مكي ، سعدالله، البقاع المقدسة في الرحلة الغربية - رحلة في بلد العجائب - (حج مسيحي الى مكة والمدينة) مجلة دراسات استشرافية، ع 16، اذار 2019 .
3. الحمداني، نوفل، الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديالي، ع55، 2012 .
4. دانييل، هنري باجو، الادب العام المقارن، ترجمة: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دن .
5. حنون، عبد الحميد، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986 .
6. الحربي، صالح، صورة الاخر في الادب العربي وأثر ادورد سعيد دراسة مقارنة، مجلو جامعة طيبة للآداب والعلوم الانسانية، ع 20، 1441 .
7. صورة الاخر في التراث العربي، حوار مع الذات، الجريدة، 2010/5/14 .
8. عمارة، محمد الاسلام والآخر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2008 .
9. نويهض، عادل، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر "مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط2، 1988 .
10. حفني، عاصم، التسامح أم التوقيير؟ حادثة ابن عربي المبكرة تؤسس لفكر إنساني رحب، موقع قنطرة، 2019/5/7 .
11. الاسود، الحبيب، الشيخ الاكبر زار تونس في مناسبتين واخذ العلم عن شيخها عبد العزيز المهداوي وذكرها في مؤلفاته، موقع العرب، 2019/11/16 .

12. ابو عبدالله، محمد بن ابي بكر، مدارج السالكين بين اياك نعبد واياك نستعين، تحقيق: محمد الفقي، دار الكتاب العربي بيروت، ط2 1973 .
13. الملوحى، عبد المعين، ابن العربي ووحدة الاديان، موقع الكاتب عبد المعين الملوحى، ع2016، 1993/5/28 .
14. القاشاني، عبد الرزاق بن احمد، ت730هـ، فصوص الحكم للأمام الاكبر محي الدين بن عربي، ضبط: عصام الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1971 .
15. صالح، هاشم، ابن العربي ايمان بلا حدود، مؤمنون بلا حدود، 2014/5/16 .
16. القضاة، نور، بناء الصورة عند ابن العربي وجلال الدين الرومي، مجلة دارسات للعلوم الانسانية والاجتماعية، مجلد42 ، ع2، 2015.